# الصدى اللعين

بقلم طلال توفيق أبوغزاله

عام ١٩٥٨

# طلال أبوغزالة

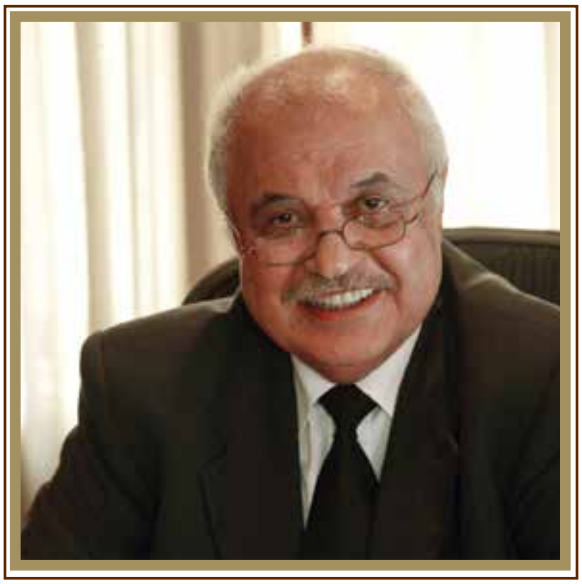

من مواليد يافا – فلسطين – ٢٢ نيسان ابريل ١٩٣٨

فتح عيناه على خضرتها وبياراتها، وسط أسرة متوسطة الحال، ويافا المدينة الرمز لكل مدن وقرى فلسطين مازالت وستبقى تسكن في قلبه ووجدانه.

كُتب على المؤلف الكفاح منذ صغره، فتعلم كيف يواجه صعوبات الحياة، وأدمن على النجاح والتفوق في الدراسة وفي حياته العملية بعد ذلك.

برع طلال أبو غزاله في تحويل المصاعب إلى متع، فكانت التحديات التي تواجهه تشجعه على الاستمرار ويعتبرها نفحة الحياة.

يؤمن المؤلف بأن عقل الإنسان ينبض بالأفكار كما ينبض القلب بالدماء، وأن المخ كالعضلة تنمو بالمران والممارسة وإذا أهمله الإنسان لا يضمر فحسب بل يرتكب صاحبه جرماً بحق أهله و أمته.

باختصار خرج المؤلف من رحم معاناة تشتت الشعب الفلسطيني ومن تحت أنقاض النكبة رافضاً الإحباط ليصنع بعزم و بإرادة قوية ومثابرة ملحمة نجاح اسمها مجموعة طلال أبو غزاله، وفيها كبر وأبدع ونال الأوسمة الرفيعة وأسس صروحاً للعلم والمهن، وألف المعاجم، فهو دارس من الطراز الأول وتربع بكل ثقة ونجاح على رأس العديد من المؤسسات المهنية الدولية والعربية. وتسجل له وللمجموعة التي أسسها ويترأسها مواقف إنسانية واجتماعية لا مكان لذكرها هنا وهو شغوف بحبه للموسيقى.

اليوم أصبح المؤلف علماً من أعلام الفكر والثقافة ورجل الأعمال على المستوى الدولي.

عمارة عائلة أبوغزاله في يافا وظلت فيها حتى عام ١٩٤٨م

لوحة على مدخل العمارة محفور عليها "إن هذه العمارة ملك لتوفيق أبوغزاله أنشئها في غرة رمضان المبارك سنة ١٣٥٣ هـ"

مدخل عمارة أبوغزاله

لوحة على الشارع الذي تقع فيه عمارة أبوغزاله

# الصدى اللعين

بقلم طلال توفيق أبوغزالة

الفائزة بجائزة القصة القصيرة في المسابقة التي أجراها المجلس
الأعلى لرعاية الفنون والأدب والعلوم الاجتماعية بالجمهورية العربية المتحدة بين طلاب
الجامعات والمعاهد العليا في البلدان العربية عام ١٩٥٨

# تقديم ...

في نهاية الخمسينات وتحديداً عام ١٩٥٨ أي بعد مرور عشر سنوات على مأساة وطنه، كتب الأستاذ طلال أبوغزاله هذه القصة القصيرة الفائزة بالجائزة الأولى من قبل المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الإجتماعية في «مصر» الجمهورية العربية المتحدة آنذاك وعلى مستوى الجامعات والمعاهد العليا في البلدان العربية ...

تنبض القصة بمرحلة المد القومي حيث الأمل والثورة والقومية والعروبة والوحدة وشعارات أخرى كان يرددها وتربى عليها جيل الخمسينات ومنهم الكاتب، الذي عاش مأساة إحتلال فلسطين وأزمة الأمة في تلك الفترة.

شعارات زرعت في نفوس الجيل روح التحدي والتصميم فأضحت بالنسبة للكاتب نهج حياة وفلسفة بنى عليها طموحاته ومسيرة حياته العلمية ليصبح اسماً ورمزاً وعلماً ملتزماً كما جاء في القصة قوله، تعلمت أنه لا ينتهي المرء عندما يخسر إنما عندما ينسحب ...

القصة بما تضمنته من عناوين ومحتوى منذ خمسين عاماً أي في مرحلة عنفوان الشباب ما زالت تسري في روحه وعقله وضميره وإصراره بأن يافا من أجمل مدن العالم، وفلسطين الوطن الأغلى، والعروبة تعني له السمو والخلود ...

لقد كان لي شرف أن أكون بالقرب من الدكتور طلال أبوغزاله وفي مجموعته منذ نحو خمسة وعشرين عاماً، الرجل هو نفسه لم يتغير ولم يتبدل يتنفس هواء العروبة النقي، وقلبه ينبض باسم فلسطين.

طلال العوضي
٢٠٠٧

# الصدى اللعين

. . . ولم تلبث أن أطلت من بعيد. كانت تسير في تأن واتزان مطرقة برأسها إلى الأرض إطراق الغارق في بحر من التفكير. وغاظني تمهلها إلى لقائي كأنها غير مكترثة لانتظاري واشتياقي.

إنها الفتاة التي أحب... يتحول الغيظ في داخلي إلى حيرة. فهذه الإنسانة لا تفيض إلا بالحب . . . والسعادة . . . والخير. لذلك اصبحت حائراً ينتابني شعور بالغيظ ولكنني أجد مبرراً، يحُول بيني وبين هذا الشعور. وزاد كل ذلك من لهفتي لأن أحدثها عن الشوق . . . عن حلمي الحبيب. ورحت أستعيد قصة لقائنا الأخير أشغل بها نفسي عن ألم الحيرة ولوعة اللهفة.

.....

كان والدي يحدثني برؤية صاحب التجربة العارف لما يجري، وكنت أصغي إليه على أنه يتكلم برؤية جيل قديم . . . فتىً يأبى أن تطعن آمال أمته . . . ولو بأفكار أبيه . . . حاورته:

**قال لي** «قد تتهمني، يا بني، بالرجعية والتشاؤم والتخاذل، غير أن الأيام ستثبت لك خطأ ظنك وتريك ما لا تراه عينيك. إنك بما تعتقد تجرد من الوطنية جيل والدك وتثقل عليه اللوم، وما كنت لتفعل ذلك لو لم تنظر إليه بمنظار عاطفة جوفاء تدعوها (وعياً) وهي أبعد ما تكون عن الوعي. إن الجيل الذي تهاجمه يا بني غير متخاذلٍ وليس خائناً بل هو جيل تخطى حدود الوعي العاطفي إلى الوعي الواقعي ذلك أن الوعي العاطفي ليس إلا تعلقاً بحلم كبير تُسلِّط عليه الأيام أنوارها فينكشف . . . وتخبو العاطفة».

**تنفس بعمق وتابع ليقول** «الإقرار بواقع من المحال أن يتغير تسميه رجعية. ولكن بربك قل لي ما التحرر والثورة والتقدمية؟ إنها أداء فارغ بكينونة ما نتمنى أن يكون... إنها الإصرار على تجاهل الواقع والتشبث بحلم عاطفي واه. الواقع العربي حقيقة بقيت كما هي أجيالاً طويلة... ولا يبدو أنها ستتغير.

**"أما الواقع الذي تنشده وتتمناه وانا ايضاً اتمناه فلن يكون"**.

أمسك بيدي وهز برأسه وهو ينظر إلي. إعتبر هذا تشاؤماً إن شئت. أما أنا فأدعوه واقعية. حلمك الكبير أمنية لنا جميعاً... أنا وأنت وكل الشعب . . . والفارق الوحيد هو أنني أدرك أنها مجرد أمنية بينما تظنه أنت واقعاً سيكون او يتحقق.

يا بني «والشعور بالمسؤولية! لمن هم في عمرك وتجربتك وخبرتك يعني فقط التعلق بالخيال دون الواقع، أو هو التحمس للا شيء، أو لعمل لا طائل تحته، كمن يقضي النهار جرياً وراء ظله. إما أن يدرك المرء حقيقة الظل ويكف عن متابعته فذلك تخلٍّ عن المسؤولية وتهرب من الواجب».

وشعرت برغبة ملحة في الكلام. وفكرت بأنٍ أواجهه برد قوي صريح . . . ولم أجرؤ. ونظرت إلى صحن السجائر أريد أن أسحق عقب سيجارة كان يبعث دخاناً يرسم «خيالات» لا تلبث أن تتبدد في الفضاء . . . وجبنت ثانية. إنها تقاليد الأسرة! عندما يتحدث الكبير عليك أن تنصت وتستمع. التقاليد التي شعرت أنها تريد أن تخرسني أمام هذا السيل العارم من التحامل والمغالطات كما أعتقد. ووجدتني بحاجة لأن أثور . . . لأن أحطم التقاليد مرة واحدة . . . من أجل أن أدافع عن **"حلمي الكبير"**.

منذ أربع سنوات أغتصبت فلسطين. فكفر والدي بكل شيء . . . ناعياً الامة ومستقبلها. وانقضت السنوات الأربع العجاف دون أن يشع بصيص أمل مهما كان ضئيلاً. كانت أوضاع الوطن تسير من سيئ إلى أسوأ . . . وقصة تشريد شعبنا العربي في فلسطين تصبغ حياتنا بلون أسود قاتم. كنا ننظر إلى خيام البؤس كمن يتحدى إرادتنا ويطعن كرامتنا فلا نملك أكثر من أن نعرض عنها بأسى وغيظ. كل خيمة نصبت لنازح هنا كانت وصمة عار في جبيننا

نحن عرب لبنان. وانتفض الشعب في لبنان ليمحو وصمة العار فصدمه الواقع المرير . . . وارتد قانطاً يائساً. كان الظلام المخيم على أرجاء الوطن العربي شديد الحلكة. وتعاظم اليأس حتى أوشك أن يتحول إلى استكانة وقبول بالواقع البغيض المقيت.

لذلك كانت ثورتي. فهذا اليأس القاتل كان أول ما يهدد حلمي الكبير بالتلاشي والضياع. وأصبحت أعتقد أن البوح بالحلم جريمة جريمة . . . الجريمة الوحيدة التي لا تغتفر. وحاولت جاهداً تبرئة والدي من تلك «الجريمة» فرحت أختلق لمواقفه الأعذار . . . وفشلت. ذلك أن فكرة «فلسطين لن تعود» لا يمكن تبريرها من أي كان. وأردته أن يقولها صراحة لأثور... لأحطم التقاليد . . . لأطلق الكلمات الحبيسة في صدري وصدر أخوتي الصامتين. وسألت:
**ـ وفلسطين . . . هل تعود؟**

قلتها بنبرة كلها تحد واستنكار. واضطرب جو الغرفة. وعلقت الأنفاس. وأحسست بالنظرات من كل جانب تخترقني . . . نظرات والدتي وأخوتي الصغار. كانت نظرات واجفة متوسلة ترقب الجواب. وتكلم والدي . . .
وهل يدل واقع أمتنا على ذلك؟
ولكننا ثائرون على هذا الواقع عازمون على قلبه.
لقد ثرنا عليه أجيالاً طويلة فأي نصر حققنا غير ضياع فلسطين؟!
ولكنها ستعود رغم أنف الدهر.
ذلك حلم
ولكنه سيتحقق
بل لن يتحقق
وضاقت بي الدنيا. وتأججت الثورة في داخلي واشتدت . . . ثم انقلبت إلى نقمة. ولم أجد من أصب عليه نقمتي غير نفسي . . . ولم أحتمل. فغادرت من مكاني بعيداً عن والدي. عن الجو الذي كاد يخنقني. أسْرعت خطاي نحو الشاطئ كي أغسل فيه نقمتي ولكنني لم أستطع الهرب. إن الفكرة اللعينة كانت تلاحقني . . . والصدى اللعين كان يتعالى مدوياً «فلسطين لن تعود».

**وفجأة تذكرتها** . . . تذكرت وفاء. ونسيت الشاطئ. والصدى اللعين. النقمة على نفسي. واتجهت لأقرب غرفة هاتف فكلمتها. وطلبت إليها أن تقابلني في الحال. وضعت سماعة الهاتف وأغلقت باب الغرفة وخرجت. التفت إلى الرجل الجالس هناك فوجدته يبتسم . . . وابتسمت دون أن أفهم شيئاً. وقطعت الشارع . . . ثم تذكرت أني لم أدفع أجرة استخدام الهاتف. فلما عدت إليه وجدته مازال يبتسم فأدركت أنه قد فهم.

والتقينا بعد دقائق. جلست أتأملها . . . فإذا السعادة تغمرني والاطمئنان يملأ كياني. كان كل ما فيها جميلاً ساحراً: شعرها الأشقر المنسدل. عيناها الخضروان الحالمتان. وذراعها البضة الناعمة الملقاة على الطاولة برفق ودلال. كانت أكثر من جميلة . . . فالدفق الروحي الهيولي الفائض عنها الممزوج بالجمال .. هو عالم فوق الوصف ... ولم أكن أحبها لذاتها الجميلة فقط بل لتلك الروح التي تخلقها في وأنا إلى جوارها. إنها لم تكن مجرد «هي» بل كانت هي . . . وأنا . . . والوجود كله . . . كانت إنساناً يفهمني.

بقيت برهة أهيم في بحر عينيها. وتحرك في الفضاء أمام ناظري بنانها الرقيق يداعبني كي أفيق من حلمي الحبيب . . . وافقت أردد:

**"لن يتحقق الحلم الكبير"**
**وتساءلت بهلع واستغراب: "كيف تقول ذلك؟"**

**وأجبتها:** «إن والدي هو من قال ذلك»

**أبت وفاء إلا أن تبقى على بصيص من أمل فراحت تسألني:** «وهل كان جوابه قاطعاً؟»
**فأومأت رأسي مجيباً:** «ولم يكتف بذلك بل حمل علىّ وعلى حلمي الحبيب».

**وسمعتها تتمتم بأسى وحسرة:** «لن يتحقق الحلم... ولن نسعد بالزواج»

وصدمتني الحقيقة البغيضة. لقد أدركت لأول مرة أنها لا تفهمني... إنها تظن أن لا حلم إلا حلم الحب الصغير. وتبخر «الدفق المعنوي» في لحظات وتحولت «الإنسانة التي تفهمني» إلى قطعة باردة لا صلة لها بي. واضطرب الجو . . .

وشعرت بالنقمة تملأ كياني . . . والصدى اللعين عاد من جديد. ومرة أخرى . . . لم أجد هدفاً للنقمة سواى. وأردت أن أطفئ من نار النقمة التي أخذت تنتابني فتكلمت... تكلمت بصراحة ودون رؤية أو تفكير.

أفْهمتها أن لدي حلماً آخر . . . حلماً كبيراً . . . حلماً يمثل أماني أمة وإرادة شعب. وحدثتها عن هذا الحلم عن حتمية وضرورة تحقيقه، عن صعوبة تجسيده وما يعترضها. ثم وصفت لها كيف أني قد طعنت اليوم في حلمي الكبير مرتين: مرة بيد والدي وأخرى بيدها هي، وكيف أني لم أحتمل أن يطعن حلمي فنقمت، ليس على والدي ولا على الفتاة التي أحبتني، بل على ذاتي. لقد وجدت نفسي ناقماً حاقداً ما بين جيل تخلى عن الحلم الكبير وجيل شغله حلم صغير. وأصبحت أخشى على حلمي الكبير أن يتلاشى فشغلت به ونسيت كل شيء... حتى ذلك الحب الذي «يملأ دنياي».

**وتركتها**، وتذكرت الشاطئ فهرعت إليه هرباً من نفسي... ومن الصدى اللعين. ووصلت الشاطئ. ورحت ألتقط أنفاسي بعد أن أخْرس هدير البحر الصاخب ذلك الصدى اللعين.

أخذت أرقب الأمواج تتكسر على الشاطئ الرملي العريض. كانت تتدافع متتالية دونما كلل أو ملل حتى إذا ما تكسرت على الرمال الصفراء المتلألئة غَسَلتها من أدران اليابسة. وأبصرت عند أقصى مبلغ الموج بقعة سوداء قاتمة تلطخ نقاوة الإصفرار المتلألئ. ثم أدركت أن هناك صراعاً بين الأمواج المتدافعة وتلك البقعة التي عكرت صفو الرمال. وتتالت الأمواج... وحاولت متتالية محو البقعة القاتمة . . . لكنها عجزت.

بقيت قطعة السواد تلطخ الرمال. وتأملتها . . . وكأن البحر هدأ واستكان أو يئس . . . فبدت لي فخورة متحدية. وشعرت بدافع قوي لركلها بقدمي إلى البحر. ولم أكد أخطو نحوها حتى لطمتني موجة عارمة ألقت بي على الرمال. وانحسرت الموجة. والتفت من حولي أبحث عن البقعة فلم أجدها . . . لقد ابتلعها البحر.

**وفجأة** سَكن الكون وتلاشى كل صوت . . . حتى الهدير الصاخب الذي أخرس الصدى اللعين . . . عرفت كيف يتحقق الحلم الكبير. وسمعت صدى جديداً يأتي من بعيد: «سيتحقق الحلم . . . وفلسطين سوف تعود» ورحت أركض فرحاً أريد الاقتراب من ذلك الصدى الحبيب.

**ابتعدت عن الشاطئ** وأسرعت إلى حيث كنت واقفاً قبل دقائق... فلم أجدها. واقتربت من الطاولة التي كنا نجلس عليها ووضعت كفي حيث كانت «الذراع البضة الناعمة ملقاة برفق ودلال»... فشعرت «بالدفق المعنوي الفائض عن ذاتها» يدب في من جديد. بقيت كذلك برهة أفقت بعدها على النادل وهو يمسح الطاولة من ماء البحر الذي خلّفته يدي. ونظرت إلى ثيابي المبللة . . . ثم إلى النادل . . . وابتسمت ولم أخجل.

كنت لا أزال أسمع الصدى الحبيب وأنا أتجه مسرعاً إلى الغرفة التي كاد يقتلني جوها منذ زمن قصير. ومررت برجل غرفة الهاتف وحييته ففغر فاه وهو ينظر إليّ . . . ولم يرد. وتأملت مبتسماً نظرات السخرية والعجب التي قابلني بها الناس. فسخرت من سخريتهم وعجبت لعجبهم. بل لقد كنت في شغل شاغل من ذلك . . . كنت سعيداً بحلمي الكبير. إن ذلك الحلم كان سعادة شعب بكامله وفرحة أمة بأسرها. وودت أن يشاركني الشعب الأبي هذه الفرحة وتلك السعادة فرحت أحيي كل من رأيت وأبتسم له حتى حامت حول عقلي الشكوك.

دفعت باب المنزل والصدى الحبيب مازال يتسلل إلى أذني في لحن جلي رقيق. وعجبت من والدي . . . وأمي . . . وأخوتي كيف لم يسمعوا لحني الحبيب! وجلست أمام والدي أؤكد له من جديد:

**"سنحقق الحلم الكبير . . . وفلسطين سوف تعود"**

فحدق في مشدوها وهز رأسه . . . ولم يصدق، حتى أخوتي . . . لم يصدقوا ذلك. ونظرت أمي إلى الثياب العالقة بجسدي فضربت كفاً بكف... وانحدرت على خدها دمعة.
ولم أحزن. كنت أعلم أن اللحن الحبيب . . . لحن الحلم الكبير . . . سوف يصل الى أذانهم. عندئذ يصدقني أخوتي، وينظر إلى والدي بثقة واطمئنان، وتنحدر على خد أمي دمعة أخرى . . . دمعة الفرح.

ومرت أيام ثلاثة قضيتها وحيداً في سعادتي أنتظر وأنتظر . . . حتى أطل صباح يوم رابع. تركت فراشي وأسرعت إلى الغرفة المجاورة أستجلي الخبر. كانوا حول المذياع . . . عيوناً تبرق ببريق الأمل . . . وقلوباً تنبض بالعزم والثقة. وجلت ببصري على الجميع . . . وعلت أصوات أفراد الأسرة يتسابقون لإبلاغي أعز أمنية. «ثورة في مصر» . . . وابتسمت. ونظرت إلى والدي فوجدته يبتسم مرددا:

**"نعم يا ولدي . . . سيتحقق حلمنا الكبير . . . ولسوف ترجع فلسطين".**
**فهززت رأسي وصدقت.**

ودوى الصدى الحبيب في كل مكان، ودخلت السعادة كل قلب لقد عاد الشعب الأبي «يصنع التاريخ من جديد . . وتلاشت إلى الأبد مقولة فلسطين لن تعود» وسرى في أمتي دفق الثقة والتصميم . . . الثقة بالحلم الكبير، والتصميم على تحقيقه. أصبح الشعب... كل الشعب... مهيأً لمعركة الثأر المباركة. والدي . . . وأخوتي . . . ورجل غرفة الهاتف . . . والنادل. لم يعد في أمتي من يشكك بالحلم الكبير.

وعادت الي رغبة جامحة للحب. ذلك أن الحب لكي يكبر فينا ويقوى يحتاج الى أمل وثقة بذلك الأمل. فإذا ما راودت المرء شكوك بمستقبله ومصيره ونفسه فانه سيحتاج الثقة حتماً قبل الحب. ثم أن الحب للأنانية في النفوس إنه انفتاح الذات كي تتسع للغير. وأداء الواجب القوميعني كذلك قتل للأنانية لأنه يذيب الفرد في المجموع والمواطن في الأمة. لذلك، ما أن استشعرت طمأنينة الثقة ولذة العمل حتى وجدت نفسي بحاجة للحب من جديد فأسرعت أطلب الفتاة التي حطمت «حلمها الصغير» كي أبنيه من جديد.

.....

مرَّ كل ذلك بخاطري وأنا أرْقبها تُقبل من بعيد. وجلست أمامي . . . بشعرها وعينيها ويدها البضة . . . وغمرني دفقها المعنوي. نظرت إلى وجهها المشرق وهمت في ابتسامتها الساحرة . . . ولم أتكلم. وجذبني إليها شيء جديد ترددت في تصديقه. لقد لمحت في نظراتها مسحة من أمل وثقة. وعجبت من أمر هذه الفتاة! أحَطّم حُلمها . . . أتركها حانقاً . . . أنساها أياماً . . . فلا تنتقم ولا تحقد بل تقبل راضية مسرورة.
وأصغيت لبريق الأمل المنبعث من العينين الخضراوين يروي قصة الحلم الكبير الذي أخذ يتحقق. رأيت لها السعادة . . . أن تعيش قصة الحب أحلاماً وآمال، فناجيتها:

**وفاء . . . إن أحلام حبنا ستتحقق!**

وصَمَتُّ لحظة أرقب النسيم يداعب سيل شعرها المنسدل. وأقترب الوجه الجميل . . . فوق المنضدة . . . وأسند إلى كفها الصغير . . . وتهادى صوت عذب رقيق:

**"حدثني أولاً . . . عن الثورة المجيدة".**

وسمعت حشرجة الصدى اللعين . . . وابتسمت . . . وحدثتها عن الثورة وعن الحب أيضاً. لقد آمنت الامة بالحلم الكبير، **ولم يعد في أمتي من يشغله حلم صغير.**

# الصدى اللعين

بقلم طلال توفيق أبوغزاله
عام ١٩٥٨